مفتتح

أيتها المعلمات أيها المعلمون:
إنه أكثر من مجرد اقتراح لعمل ما ينبغي عمله هنا والآن!

وسيم الكردي

أنهى معلمو المدارس الحكومية الفصل الدراسي الأول، وذهبوا إلى إجازتهم نصف السنوية، ويصدر هذا العدد من "**رؤى تربوية**" بعد عودتهم إلى مدارسهم للشروع في الفصل الثاني. انتهى الفصل الأول بشهرين دراسيين تقريباً في معظم المدارس، وبعد عودتهم من الإضراب، وهو الفصل الذي يكتمل عادة بأربعة أشهر تقريباً. وقد مرَّ هذان الشهران، بكل ما أحاط بهما من ارتباك وتوتر وقلق، مروراً بدا سريعاً وخاطفاً، وبخاصة أن المعلمين كانوا مطالبين بإنجاز فصل دراسي على مدى شهرين، فاجتهدوا كثيراً في محاولة إنجاز ذلك دون خسائر، أو بأقل ما يمكن من الخسائر. فحذفوا وكثّفوا وأبدلوا . . . وقد شكّل ذلك ضغطاً نفسياً وعملياً عليهم، ولم يكن هذا الضغط وحده هو الذي أفضى إلى الارتباك والتوتر والقلق، بل إن كل الحياة بكليتها شكّلت مصادر لذلك؛ فهل ستلتزم الحكومة بما اتفق عليه؟ هل هناك ما يشير إلى بوادر لتجدد الإضراب؟ كيف يمكن أن نتعاطى مع الموضوعات التي ندرسها في حدود ما لدينا من وقت؟ أي أثر ألقاه عدم العمل لأشهر على مزاج المعلمين وروحهم ودافعيتهم ورغبتهم؟ أي آثار تركها عدم انتظام الطلبة عن الدراسة لخمسة أشهر متتالية إذا أضفنا لشهرَيْ الدراسة أشهرَ العطلة الصيفية الثلاثة؟ ولم تكن المسألة متصلة فقط بأسئلة من هذا النوع في حدود العملية التربوية بمعناها الضيق، بل احتد الوضع السياسي إلى مستوى لم يكن يرغب كثير من الفلسطينيين في توقعه، مع أنهم كانوا يرون بوادره كل يوم، وبدلاً من ذلك كانوا يتحدثون عن الخط الأحمر الذي لا يمكن تجاوزه فتجاوزوه وتجاوزوه وتجاوزوه، أو لنقل بأن طرفين كبيرين تجاوزا كثيراً ذلك الخط الأحمر الذي لا يمكن اجتيازه.

لماذا أربط الشأن السياسي وما جرى من اقتتال مع الشأن التربوي؟ فجميعنا يعرف أن الصلة وثيقة، وهذا أمر بدهي لا يحتاج إلى أدلة أو إثباتات! إنني أضع هذا السياق لأفصح عن مسألة أخرى، وهي كيف يمكن للمعلمين في ارتباكهم وقلقهم وتوترهم أن يقوموا بأداء دور تربوي في ظرف كهذا؛ سواء على مستوى ما هو متاح من زمن أم ما هو فاعل في محيطهم من قتل وتدمير ذاتي؟ وكيف يمكن للمعلمين إذا ما تمكنوا من التجلد وتخفيف حدة الارتباك والقلق والتوتر أن ينشغلوا في تدريس يتغافل عما يجري، ولا يضع ما يجري من أولويات عملهم. إن المسؤولية الاجتماعية هي المسؤولية الأساس، ومن ضمنها تقع المسؤولية التربوية وليست المسؤولية المدرسية في انشغالها "بالدراسي" المنعزل أو المعزول عما يجري حوله وفي محيطه.

لقد حاول معلمون الالتفات إلى الأمر، إلا أن الضغوطات الإدارية لضرورة إنجاز المنهاج لم تمكّنهم سوى من اقتطاع أجزاء ضئيلة من وقتهم لمهمات تتصل بذلك مع طلبتهم. وقد حاول معلمون آخرون تسخير الأيديولوجيا التي يتبنونها في محاولة إثبات أخطاء الطرف الآخر وخطاياه، وهذا لعب دوراً تعبوياً فئوياً لا يليق بالمعلم أن يلعبه، وإنْ اعتقد بأنه يمتلك الحقيقة بين جناحيه. أما معلمون آخرون، وهم الأكثرية، فقد لزموا الصمت ولاعتبارات عديدة، فإما لأن الصمت شكل من أشكال الاحتجاج، وإما لأنهم اعتقدوا بأن عليهم تركيز وقتهم في المادة الدراسية كي يعوِّضوا الطلبة ما فاتهم، وإما لأنهم يعتقدون بأن موضوعاتهم لا تتيح لهم إمكانية الولوج إلى موضوعات من هذا النوع، وإما لأن الهمَّ والغم لا يتركان للمرء سبيلاً إلى طرق ما هو "عالفاضي" . . . وغير ذلك من الاعتبارات التي لا ضرورة لسوقها هنا، ففي ما مثّلتُ ما يكفي لإضاءة الفكرة في حدود ما تتغياه.

إن حدوث ذلك، وبأشكاله المختلفة ومقارباته المتنوعة، يؤشر لنا وبعمق إلى انفصال المؤسسة المدرسية عن دورها الاجتماعي التنويري، فلا معنى لصلاح المدرسة إذا كان المجتمع من حولها يتهاوى، وهي تستغرق في مهمتها "الرسولية"، ولا معنى لها إذا استغرقت بأفق يماثل أفق ما يجري في المجتمع، ومع أنني أدرك تماماً بأن المدرسة في إطارها العام هي مؤسسة لا تلعب دوراً ريادياً في التغيير الثقافي والاجتماعي، بل خاضعة له، فإنني أعتقد، ولكونها عاشت ظروفاً خاصة واستثنائية جداً، فقد كان ويمكن أن يكون بإمكانها أن تلعب، وإن في هامش ما، دوراً فاعلاً في تفعيل رفض مليون من البشر ينضوون تحت لوائها بفعل تنويري وعملي قد يسهم في وضع حد لما يجري من اصطدام يتطلع أطرافه إلى تحسين شروط موقعهم السياسي، وإن كان ذلك بالدم والإقصاء.

وبدلاً من لوك مقولات كمقولة "الانفلات الأمني" الذي هو ليس انفلاتاً، بل هو فعل سياسي مخطط بامتياز، وله من هم وراءه يسيِّرونه لخدمة غايات سياسية بطرائق عنيفة. وبدلاً من مقولات كتجريم سلاح الانفلات، وتقديس سلاح المقاومة، وكأنهما سلاحان مختلفان (هذا إذا تغاضينا الآن عما يمكن له أن يكون فعلاً مقاوماً أم فعلاً مغامراً) إنهما السلاح نفسه، الذي قد يكون منفلتاً حيناً وقد يكون متعقلاً في حين آخر، وقد يكون مقاوماً في وقت، وقد يكون مغامراً في وقت آخر، فالأمر ليس في السلاح نفسه والدعوة إلى اختفائه أو إخفائه من الشوارع تحت مقولة تحريم الظهور المسلح في الشوارع، وكأنه الحل . . . فكلنا يعلم كم هو سهل ظهوره من ثكناته وبلمح البصر. إن الأمر ليس في السلاح نفسه، بل في توظيفه، وفي كيفيات استثماره . . . إن هذه

الوضعية التي نحن عليها قد أتاحت أيضاً للبعض أن يرتكبوا أفعالاً جنائية، وأخرى تخريبية؛ فهل هناك بيئة أصلح لبروز أفعال كهذه ولتماديها واشتطاطها؟!

في مجتمع كنا نظن، وما زلنا نظن، بإمكانية أن يكون مجتمعاً ديمقراطياً يتداول الساسة فيه السلطة ضمن تقاليد إنسانية مدنية. لا يجوز البتة وتحت كل الذرائع أن يتحول إلى مجتمع يمكن لفئات فيه أن تحتكم للسلاح لتحقيق تلك الغايات السياسية الضيقة. وهنا مكمن الأمر تربوياً، فإذا ما تعلمنا احترام الرأي والرأي الآخر، وإذا سلّمنا باختلاف الناس وتنوع مصالحهم ومنافعهم، وإذا ارتضينا للمجتمع أن يبقى مجتمعاً، إذاً، فلا مبرر لفعل دموي ولا مبرر لتبرير فعل دموي آخر بأنه رد على فعل دموي؛ لأن الفعلين في نهاية المطاف سيتساويان؛ سواء أكان ذلك فعلاً أم ردة فعل. . . وردة الفعل ستثير ردة فعل أخرى وأخرى وأخرى، وينسال الدم إلى ما لا نهاية، وبخاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار أيضاً ثقافة كانت مختفية تحت السطح، ولم تعد كذلك الآن، وهي ثقافة الثأر والانتقام.

فهل يمكن لنا في مجتمعنا التربوي، وبخاصة المعلمين منا، أن نسهم في رؤية المجتمع كمجتمع متعدد متنوع مختلف . . . ولكنه مجتمع واحد متعاضد، متراص، متضافر أيضاً؟ وأن نبث هذه الروح وهذه الثقافة، ليس داخل أسوار المدرسة وحسب، بل في المجتمع أيضاً، وإن اقتضى الأمر أن لا يكون ذلك فقط فيما يخص الوعي، بل فيما يخص فعلاً حقيقياً في الشارع وفي البيت وعلى الأرض.

وسأضم صوتي هنا لمارو لياتسو (مدرسة دراما يونانية ستجدون مقالتها في ثنايا العدد) فهي تستلهم مسرحية "ليسستراتا" للكاتب المسرحي اليوناني "أرستوفان"، وتوظفها في فعلٍ درامي مدرسي في مدرسة يونانية ولأطفال يونانيين، فعل توعوي مكرس ضد الحرب التي تشنها أمريكا؛ ففي هذه المسرحية تتخذ النسوة قراراً بالامتناع عن مضاجعة أزواجهن إلى أن يتوقفوا عن القتال، وأن يضعوا سيوفهم في أغمدتها، كان ذلك في زمن احتدمت فيه الحروب الأهلية بين المدن اليونانية القديمة، هذه الحروب التي خرَّبت وأفقرت ودمرت حضارة امتدت لقرون خمسة زاهية. . . ربما سيضحك البعض من هذا أو يستلقي على قفاه! فليكن! فأن نضحك على أنفسنا أمر شائع لا غرابة فيه! لنأخذ الفكرة من المسرحية أكثر مما نأخذ الحالة نفسها؛ فهل يمكن لنا كآباء وكأمهات وبنات وأبناء وزوجات أن نفعل شيئاً كأن نقاطع هؤلاء "الذكور" الذين يقتتلون في كل شيء نستطيع مقاطعتهم فيه إلى أن يكفوا عن ذلك؟! هل يمكن لابن أن يشرّع صدره في وجه بندقية أبيه التي يمكن له أن يستخدمها لإحداث ثقب في السفينة المتأرجحة بين أمواج متلاطمة؟! هل يمكن لابنة أن تفعل شيئاً في صدِّ اقتتال يجري أو يكاد، أم أن ثقافة الذكورة العسكرتارية يمكن لها أن تفوز، فلا تبقي من الوطن سوى أنقاضه، وحينها سنقول: ما الذي نفعت فيه هاته البنادق؟! هل يمكن لنا أن نرسل صور القتلى إلى المتقاتلين؟! وأن نرسل صوراً لمن تركوا وراءهم من أهل ومن أطفال، فربما يمكن للصورة أن تفعل شيئاً في حقن الدم كما تفعل الصور لاحتقانه ومن ثم فورانه؟! هل يمكن لنا كمعلمين، على الرغم من الارتباك والتوتر والقلق والخوف، أن نفعل شيئاً في هذا المسار؟ وهل نفكر قليلاً بأن هذه الحالة من الارتباك والتوتر والقلق والخوف ناجمة في جانب منها مما نُحدثه في بلادنا، فإذا توقفنا عن تمزيقه بأيدينا فقد لا تستمر الحالة وقد لا نَورّثها لمن هم بعدنا؟ هل في الاقتراح سذاجة؟! ربما! إذن ادفعوا باقتراحات أخرى تُخرجنا مما نحن فيه! يقول بيرتولد بريخت في مقالته المنشورة في ملف العددَ "كتابة الحقيقة: الصعوبات الخمس": "إن التفكير الذي ينشأ عن سؤال حول كيفية شن حرب يمكن أن يقود إلى سؤال آخر حول ما إذا كان للحرب أي مغزى. وبناء على ذلك، يمكن أن ينطبق التفكير على سؤال آخر: كيف يكون بالإمكان تفادي حرب لا مغزى منها؟ فإذا كان ذلك ينطبق على حروب بين دول وشعوب، فحري بنا أكثر أن نسأل السؤال ذاته في معرض حديثنا عن حرب داخلية محتملة! إن ما يود أن يقوله بريخت لنا هو أن علينا مواجهة ما نمر به، ولذلك فقد افتتح مقالته بقوله: "يجب على كل شخص يرغب في مواجهة الأكاذيب والجهل، ويسعى إلى كتابة الحقيقة، أن يتغلّب على خمس صعوبات على الأقل. إذ يجب عليه أن يتحلّى بالشجاعة لكتابة الحقيقة عندما تلقى الحقيقة معارضةً في كلّ مكان، وبالقدرة على تمييزها على الرغم من أنها محتجبة، وبالمهارة للتعامل معها كسلاح، وبالحكمة لاختيار أولئك الذين ستكون الحقيقة فعّالةً في أيديهم، وبالحيلة لنشرها في أوساط هؤلاء الناس.

تلميذات في أحد شوارع مدينة غزة يهربن من رصاص الاقتتال الداخلي.